دراسات في الأدب الانكليزي

# ٤ ـ وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

تتمة

الحركة الابتداعية

أما أبطال هذه الحركة فهم : الفيلسوف الشهير كانت في ألمانيا ، والكوردينال وسلي في بلاد الانكليز ، وروسو في فرنسا . ولا غرو في أن الأخير كان فارس هذه الحلبة وسيد زعمائها في مختلف البلدان . فقد نادى بالرجوع إلى الطبيعة ، وبسيطرة العاطفة على أعمال الانسان ؛ ونظريته في التربية تتلخص فيما يلي : « ترك غريزة الانسان وجسمه وقواه العقلية تنمو في مجراها الطبيعي ، وذلك بنبذ قيود المدنية الحاضرة ، والتقرب من الطبيعة »

وبعد مرور نحو ربع قرن على وفاة فيلسوف الثورة رجع شاعرنا صدى صوته في إقليم البحيرات ، وأصبح حامل اللواء ( الرومانتيكي ) في بلاد الانكليز . وتمتاز هذه الحركة بسمو مقام الرجل العادي ، فقد أصبح موضوع الأدب بدل الرجل الارستقراطي ؛ وهذه الميزة تظهر بجلاء في قصص سرولتر سكوت ، ودكنز ، وفي معظم قصائد شعراء القرن التاسع عشر ، وتشجع هذه الحركة حب الأطفال وتقليدهم لأنهم ـ كما أسلفنا ـ أقرب إلى الفضيلة من الشيوخ . ولقد رأينا شيئاً من هذا في أشعار ورد ذورث ، وظهر شيء منه في نثر « لامب » وخصوصاً فصله المشهور : « أطفال الحلم » ، وفي أشعار سوتبرن أحد شعراء القرن التاسع عشر المتأخرين . وتمتاز أيضاً بالولع بالحيوانات الأهلية منها والبرية ، وبحب القصص التي تدور حوادثها على الحب والحرب ، خصوصاً ما كان منها شائعاً في العصور الوسطى ؛ والتي يطلها الرجل العادي لا الارستقراطي . ومن أهم مظاهرها شيوع الدين والتقوى ، والتأمل والبحث في أسرار الكون ، والخروج على العادات المألوفة ، والتمرد على الهيئة البشرية . ولقد اتُّخذ الأدب سلاحاً لمحاربة سخائف الحضارة وقيودها ، ومن أهم أبطال هذا المظهر بيرون وشلي وكيتس . وتتميز هذه الحركة أيضاً بالتقرب إلى الطبيعة وانتزاع الموضوعات الأدبية منها ، والابتكار في اختيار الموضوع ، والتفنن في التعبير عنه ، لا النسج على منوال الأقدمين كما هو شائع في العصر الكلاسيكي

وإذا ما ألقينا نظرة على شعر ورد ذورث ألفيناه يمثل الأدب ( الرومانتيكي ) أصدق التمثيل ، وما يصدق على شعره يصدق على آرائه ونزعاته ، وخاصة في مستهل جهاده الأدبي ، حينما كان من أنصار الثورة الفرنسية التي كانت ثمرة فلسفة روسو بطل الحركة الابتداعية

زواجه ، كهولته ، منتهى حياته

تزوج وردزورث سنة ١٨٠٢ م من ماري هتشنسن ، من تلك العائلة التي كان يكثر من الترداد عليها . ويُروى أنه أراد أن يغتفر زلّته مع خديثته « أنيت قالون » قبيل إقدامه على الزواج ، لهذا شرع في استرضائها بشتى الوسائل ، والظاهر أنه نجح في ذلك . والذي نعلمه أن ( أنيت ) هذه لم تلاق جفاءً ومضضاً في عيشتها ، وأن ابنتها زُوجت من أحد السراة . وفي قصيدة للشاعر موضوعها « على الشاطئ قرب كاليس » يخاطب ابنته هذه ويرخّم بها بكل وداد وتحنان . على أن هذه القصة لا تزال طيّ الخفاء ولم ينكشف لنا منها إلا الشيء القليل . والباحث في ترجمة حياة وردزورث وتحليل عبقريته يود لو أنه ذكر لنا تلك الحادثة بالتطويل شارحاً بذلك عواطفه نحوها وحبه لها قبل وبعد وقوعه في الجرم . لو فعل الشاعر ذلك لوفّر على الباحث الشيء الكثير من الحدس ، ولأنار لنا هذه الناحية المهمة من حياته غير تارك بذلك مجالاً لتقوّل المتقولين ، وإشاعات المشيعين

ولقد وجد في زوجته امرأة سامية الخلق عالية المدارك شديدة العطف والاحساس ، لا تقلّ بذلك عن أخته دوروثي . فلا عجب أن رأينا دوروثي تخلد إلى الراحة بعد أن أدت واجبها إلى أخيها ونحو الأدب بكل أمانة واخلاص ، إذ رأت في امرأة أخيها خير خلف لها . ولقد خلّد الشاعر اسم زوجته هذه في قصيدة موضوعها « هي مثال الرضا » She was a Phanthani of delight

وفي سنة ١٨٠٨ ورده نعي أخيه يوحنا ، فقد مات غرقاً في أحد المراكب التي كان يتولى إدارتها . فكان ذلك باعثاً للحزن والأسى في نفسه . وعلى أثر موت شقيقه نظم قصيدة خالدة عنوانها « أخلاق المجاهد السعيد » The charaitei of the Happy warrior مشيراً فيها إلى أخيه وحياته الحافلة بجليل الأعمال ؛ ولهذه القصيدة

من الشهرة ما جعل الانكليز والأمريكان يتلونها في مآتمهم ، فيجدون في ذلك ما يعزّي النفوس ويسرّي عنها الأحزان

وفي تلك السنة أيضاً انتقل الشاعر وامرأته وأولاده الأربعة إلى ألان بارك إلى بيت رحب الفناء جميل الشكل حيث أتم قصيدته : (النزهة) . هنالك افترق الشاعران الصديقان كولردج ووردزورث ، وذلك على أثر تعريض وردزورث بصديقه ووصمه إياه بالجنون الناتج عن إدمانه الأفيون ، فكان لهذا أثر بليغ في نفس كولردج لم يطق بعده العيش معه ، وبانتهاء صداقتهما انتهت حياتهما الأدبية الخصبة ، ويندر أن تجد بين عيون قصائد وردزورث واحدة نظمت بعد ذلك الافتراق

وفي سنة ١٨١١ انتقل شاعرنا إلى بيت مجاور لأحدى الكنائس حيث توفي اثنان من أولاده ، إلا أنه لم يمكث هناك طويلا ، بل رحل سنة ١٨١٧ إلى بيته الجميل في (كدل ماونت) حيث أتيح له أن يلتقي شخصيات ذات أدب جم ومكانة اجتماعية سامية ؛ ولقد قام برحلات شتى أهمها إلى أواسط أوربا ، وأخرى إلى سكوتلندا ، وعلى أثر رحلاته الأخيرة نظم خمس عشرة قصيدة تفيض بذكريات الطفولة وأحلام الشباب ، منها قصيدته المشهورة (الحصاد المنزل)

ولقد لبث طيلة هذه المدة مكلوم الفؤاد ، حزين النفس ، لما حل به من المصائب والويلات العديدة ، ولما كان يلاقيه من جفاء وخصومة في الأوساط الأدبية . غير أنه حدث في سنة ١٨٣٩ ما طيب نفسه وسرى عنه شجونه وهمومه ، وشجعه في ميدانه ، فقد عرّفه كيبل Keble أحد كبار أساتذة كيمبردج إلى أحدى الشخصيات الكبرى في البلاط ، وأشاد بذكره أمام ذوي المناصب السامية ، فذاع صيته بين الخاص والعام ، وأحرز مركزاً رفيعاً في الأدب لا يقل عن مركز ملتن

وفي سنة ١٨٤٢ منحته الدولة مرتباً سنوياً مقداره ٣٠٠ جنيه تشجيعاً ومكافأة له ؛ وبعد موت روبرت سذي سنة ١٨٤٣ عرض عليه منصب شاعر الدولة ، فرفضه في بدء الأمر لبلوغه الرابعة والسبعين ، وقيل لأنه رأى صعوبة وعناء في نظم قصيدة في كل سنة يلقيها في عيد ميلاد الملكة كما جرت العادة قبله ، غير أن رئيس الوزراء سر روبرت بيل عاد وبعث إليه بكتاب نقتطف منه ما يلي :

« لما كانت صاحبة الجلالة توليك ثقتها الغالية فبادر بقبول هذا المنصب ، وكن عند أملها فيك . وإنها لتتوخى بعملها هذا أن ترفعك إلى المركز الذي يليق بمقامك الأدبي والاجتماعي ، ما دمت في رأيها ورأى الجميع سيد الشعراء الأحياء على الاطلاق ؛ فلا ترفض هذه النعمة »

وبعد ما اطّلع وردزورث على هذا الكتاب الرقيق قبل هذا المنصب السامي فتُوِّج بأكليل من غار ، وأصبح خليفة ملتون الأوحد ، ولم يُنتج بعد تبوئه هذا المركز الرفيع شيئاً خالداً ، بل استولى عليه الخمول منذ زواجه ، ومنذ أن بدأت الحكومة تمدّه عاش سنوى كاف . ومن القصائد المشهورة التي نظمها بعد ذلك الأوان واحدة ضمّنها ولاءه وشعوره نحو صاحبة الجلالة قدّمها إليها مع نسخة من ديوانه

وفي سنة ١٨٤٧ م تُوفيتْ ابنته (دورا) فعجلت بذلك وفاته . وكانت وفاته في الثالث والعشرين من ابريل (في اليوم الذي تُوفي فيه شكسبير) من سنة ١٨٥٠ م . وهكذا خمد ذلك النفس الذي كان يلتهب عاطفة وعطفاً على الفقراء وولعاً بالطبيعة

ولقد دُفن جثمانه في كنيسة في (قراسمير) — حسب طلبه — في حضن ذلك الوادي الذي نشأ فيه وترعرع ، وبه تغنّى ، وبذكره أشاد .

ولقد أقيم له نصبٌ تذكاري من رخام في مقبرة الشعراء في (وست منستر أبي) يحيط به أنصاب تذكارية لكبل وأرنلد وكنجزلي وموريس ، ونقش على هذا النصب الكلمات التالية :

« لذكرى وليم وردزورث الشاعر الملهم والفيلسوف الكبير الذي وُهبَ عقلا نيّراً ، ولساناً غنياً ، ليتحدث إلى الطبيعة والبشر ، الذي لم يألُ جهداً في نشر الفضيلة والكمال ، والذي تغنّى وأشاد بذكر البسطاء والفقراء ، فذاع صيته بين العام والخاص ، وأصبح رسول الحقّ وربّ الشعر . لذكراه يشيد أصدقاؤه والمعجبون بأدبه هذا النصب التذكاري ، لينطق بنبوغه على مدى الأيام »

الكرك — شرق الأردن عيسى القسوس

مصادر هذا البحث


1 George Harper's W. Wordsorth, Life, Work and Influence
2 Zeitlin's Hazlit on Eng. Literature: ch. X
3 Wordsworth's Poetical Works: Students Camb. Edition
4 Goss' English Literature; Vol. IV
5 Cazamian's Eng. Literature; P. 1034 ff
6 Oliver Elton's Survey of Eng. Literature; Vol. II; P. 49 ff
7 Moody and Leavit's English Literature; P. 273
8 Wordsworth's Preface to Lyrical Ballads